مقالة بلا موضوع !

للاستاذ علي الطنطاوي

قال لي من أيام صديق لي : أتسمع ؟

قلت : وهل تحسبني أصم ؟

قال : إن كتابتك لا تعجبني .

قلت : آسف جداً !

قال : لا تسخر . سلني ، لماذا ؟

قلت : سألتك .

قال : لأنك لا تعرف الدنيا ... لذلك تجيء كتابتك بعيدة عن الحقيقة ، خالية من الصور ، ليس فيها حياة ، ولا ابتكار .

قلت : إن ناساً قد زعموا لي غير ما قلت .

قال : هو ما أقول لك ، فلا تصدقهم ، إنهم يضحكون عليك إني ألحظ من كتابتك أنك تعيش منطوياً على نفسك ، بعيداً عن الدنيا ، فقل لي ، بالله عليك ، كيف كنت تعيش في دمشق ؟

قلت : كما يعيش الناس ؛ أغدو على محكمتي صباحاً وأخرج منها ظهراً ، فأمر على المكتبة العربية وهي من أحب الأمكنة إليّ ، وأصحابها إخوان كرام عليّ ، فألبث فيها ساعة ، وقد أتغدى فيها ، ثم أمضي إلى الدار فلا أفارقها إلى غداة الغد ، إلا مرات معدودة في السنة كلها أزور فيها صديقاً أو قريباً ، أو أخطب في حفلة ، وقد كنت قبل أن ألي القضاء أجلس أحياناً في قهوة ، أو أمضي إلى سينما ، فتركت ذلك كله .

قال : وفي مصر ؟ كيف تعيش ومن زرت وماذا رأيت ؟

قلت : أعيش أنا وأسرتي في منزل خالي ، وأمضي إلى « الرسالة » كل يوم ، وإلى الوزارة أو المحكمة أو المجلس الحسبي في أكثر الأيام . وأنا في مصر كما كنت في الشام ، معتزل متفرد أفرّ من لقاء الناس ، وأنأى عن المجامع ، ولم أزر أحداً في داره إلا نفراً من علماء الأزهر ، وزرت لجنة التأليف والترجمة مرة ، وجلست مرة واحدة في القهوة ، وخمساً في السينما ، رأيت في إحداها (فلماً) عربياً فخرجت منه غضبان أسفاً ، ورأيت في سائرها أفلاماً فرنجية ، ومشيت إلى الحدائق والمتاحف ولولا الصغار ما مشيت إليها ؛ فقد وجدت الحدائق ، مجمع غيد ودار مواعيد ، ورأيت الناس في حديقة الحيوانات ، ينظرون إلى امرأة مضطجعة على المقعد أكثر ما ينظرون إلى سبع البحر ، ويضحكون لفتيات يلعبن على الحشيش أكثر مما يضحكون للقردة تتراقص في الأقفاص ...

قال : وهذا كل شيء ؟

قلت : نعم . لا شيء فوقه ولا تحته .

والسودان إلى حقيقتها المستكنة في سرّ القلوب والدماء والأحشاء ! « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » : كلمة حكيمة صريحة قوية ، ظاهرة المعنى ، بينة الطريق ، كريمة المنبت لأنها بنت مصر والسودان — لا يسخرُ بها بعد اليوم أحدٌ إلا كان دمُه هو أول من يسخرُ منه ويزدريه ويلعنه ويبرأ من الانتساب إليه .

هذا ما كان من أمر المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ، فليفهمه من شاء كما شاء . وليقُل أصحاب الغرور المتغطرس ، وليقل أشياعُهم من المضللين : هذا شعرٌ ، وهذه عاطفةٌ ، ولكنها ليستْ بحقيقة معقولة أو تحليل متزنٍ . ونقول : نعم ! إذا شئتم ، ولكنّ الشعوبَ هي العواطف أولاً ، وعواطف الشعوب أصدقُ حُكماً من عقول السياسة !

وأخيراً ، ليعلم من لم يكن يعلَم من المتغطرسين أو من الساسة العقلاء الذين أظلّتهم سماء مصر ، أن دم الشعب قد نطقَ بالكلمة التحرّيرة فيه ، وأجمعَ عليها ، وكتبَ على نَفسه أن يَنفي الخبثَ عن مصر والسودان . ومعنى ذلك أنّ كل من خرج على إجماعه فقد خانَ وادي النيل خيانة عُظمى ، وأنّه رهنٌ بالقِصاص ، وأن قصاصَ الشعوب أبقى على وجه الدهر من قصاص الحكومات .

والكلمة الآن لمصر والسودان ، لا لفلان الزعيم ولا لفلان السياسيّ — فمن شاء أن يخالف عن كلمة مصر والسودان فليتقدّم ، ولينظر ما هو لاق في غد أو بعد غدٍ .

محمود محمد شاكر

قال : ألم أقل لك ، إنك لا تعرف الدنيا ؟

قلت : فكيف تريد أن أعرفها ؟

قال : كما يعرفها كل أدباء العالم ، وذلك ... ولكن قل لى أولا ، هل تحب ؟

قلت : أحب ؟ نعم . وهل فى الدنيا من لا يحب ؟

قال : تحب من ؟

قلت : أحب أولادى ، وأهلى ، وإخوتى ، وعمتى ...

فصاح : لا لا ، ما هذا أعنى . هل أنت عاشق ؟ إذن يجب أن تعشق ، إنه لا شىء كالعشق يصب الحياة فى الأدب .

قلت : هل تريد أن أختار فتاة من الطريق فأعشقها ؟

قال : من الطريق ، من الشباك ، من السينما ، المهم أن تعشق .

قلت : ويكفى هذا لتعجبك كتابتى ، وترى فيها حياة ؟

قال : نعم .

قلت : سهلة ، سأعملها غداً ؛ أحلق ، وألبس أحسن ثيابى ، وإن لم يكن عندى ، والكلام بيننا ، إلا ثوب واحد ، ألبسه كل يوم ، وأقف فى ... أين يقفون عادة ؟ فى شارع عماد الدين مثلا ، ثم أختار أجمل امرأة تمر بى ، فأقول لها : العفو ياست ، أو يامدموازيل ، كما تقولون فى مصر ، كلمة من فضلك . فتقول : ماذا ؟ فأقول : أنا كاتب يكتب مقالات مريضة ، وقد وصف لى أطباء الأدب ، أن أحب لتصح مقالاتى ، فهل تأذنين لى أن أحبك ؟

قال : أنا لا أحب الهزل .

قلت : تحب الجد ؟ إذن قل لى ، ماذا بعد الحب ؟ أى بعد الموعد واللقاء ؟ ماذا تكون النتيجة على رجل متزوج له أولاد ، وعلى امرأة لا يمكن أن تكون عجوزاً ولا كهلة ما تكون إلا فتاة غريرة ، أو عذراء بكراً ، لم يطوّح بها الاحتياج والفقر ، ولكن هذه المدنية الملعونة ، وهذا السفور والاختلاط ؟ أيساوى ما أفقده من شرفى ودينى ، وما تضيعه من عفافها ومستقبلها ، المقالات التى أكتبها يومئذ حيّة مشتعلة ؟ وهل تكون تلك المقالات إلا جريمة ثانية لأنها تدعو إلى مثل هذا الحب ؟

قال : إنك تتكلم بلسان العصر الماضى ، إنا لن نرجع إلى الوراء ، فلا تحاول المستحيل ، هذه هى دنيا اليوم ، ولا بد أن أريكها ؛ فقم معى .

قلت : إلى أين ؟

قال : لا تسأل : امش حيث أقودك .

قلت : بشرط أن لا تدخلنى خمارة ولا ماخوراً ولا مرقصاً ، ولا مجمعاً فيه نساء سوافر .

قال : فكيف إذن ترى الدنيا ؟

قلت : وليست الدنيا إلا هناك ؟ هذه دنيا الرجس ...

قال : ينبغى أن يرى الأديب كل شىء .

قلت : إننا تعلمنا من مشايخنا الرجعيين ، أسلوب الدعوة إلى الله ، وكيف تكون بالحكمة والتدريج لا تكون طفرة ، فلماذا لا تمشون يا أيها المجددون على هذه الحكمة فى الدعوة إلى ... إلى ... رؤية الدنيا ؟ !

قال : طيب ، آخذك اليوم إلى أمكنة لا تفكرها ولا تأباها

فضحكت وقلت : ثم تمشى بى خطوة بعد خطوة ، حتى تبلغ بى حيث تريد . هذه هى الحكمة .

قال : هيا بنا ، على أن لا تنفق شيئاً ، أنت فى ضيافتى .

وأركبنى سيارة ، وسلكت بنا شوارع على النيل ، رأينا فيها أزواجاً من الناس ، أزواجاً فى العدد لا بعقد المأذون الشرعى فقال لى : ترى هؤلاء ؟

قلت : نعم .

قال : مثل هذا يفتح قريحة الأديب حتى تتدفق بالشعر الحىّ الذى يهز القلوب من قراراتها ، فهل أمتع من هذا ؟ جمال الطبيعة وجمال الحب ...

قلت : والحكومة ترى هذا ولا تمنعه ! والعلماء يبصرونه ولا ينكرونه ! والآباء ...

قال : علماء إيه ؟ وبتاع إيه ؟ إنت فين يا أخى ؟

ومشينا ، ومر بى على قصور شامخات ، فسماها ووصف لى ما يجرى فيها ، من دَفق الذهب على موائد اليسر ، وخنق الأعراض فى سرر الشهوات ، وحرق الأكباد بكؤوس الشراب ، ثم قال لى فجأة : هل تعرف الرقص ؟

قلت : لا ، ولم أحضر فى عمرى حفلة رقص ، ولم أر راقصة إلا فى السينما يوم كنت أدخلها

فصفّق كفاً بكف ، وأبدى الرثاء لى والشفقة علىّ ، وقال بلهجة المؤدب الناصح ، للمريد الطائش :

يجب أن تتعلم الرقص ، إن له فى مصر مدارس خاصة ، وإنك تلقى فيها من يلزمك الحب إلزاماً ...

قلت : وهل الرقص إلا الفاحشة المستترة ، كالسم يوضع فى علب الحلوى ؟

فقال متحمساً : لا . أبداً . من قال هذا ؟

قلت : أنا .

قال : هذه أفكار المتأخرين الجامدين .

قلت : وما هى أفكار المتقدمين المائعين ؟

قال : ثق أننا لا نفكر أبداً عند الرقص إلا فى الرياضة والموسيقى ...

قلت : ألست تعانق فتاة غريبة عنك ، يكاد يمس وجهك وجهها ، وصدرك صدرها ، و ... أعنى ألست تحتضنها ؟

قال : وماذا فى ذلك ؟ لماذا لا تنظرون إلا إلى الناحية البهيمية ؟ هذا فنّ !

قلت : وكشف أفخاذ بنات المدارس للرياضة فن ، وتجردهن للسباحة فن ، وجلب الفتاة العارية ليصورها طلاب مدرسة الفنون الجميلة فن ، إن كلمة الفن اليوم مرادفة لكلمة الفجور عند أجدادنا الأولين .

وانتهى الطريق فنزلنا من السيارة ، وقلت :

أشكرك . السلام عليكم .

قال : إلى أين ؟ إننا سنتعشى ثم نبدأ سهرتنا .

قلت : نبدأ ؟ صارت الساعة التاسعة !

قال : وماله ؟

قلت : نتعشى فى البيت ونعود .

قال : دعك من البيت ، إنا اتفقنا على أن أريك الدنيا .

قلت : وهل البيت فى الآخرة ؟

فأصرّ فعلمت أن العشاء فى السوق من شرائط رؤية الدنيا إجادة الكتابة ، فقبلت ومشينا .

قلت : إنى أعرف (مطعما) جيد الطبخ .

قال : أى مطعم ؟

قلت : الحاتى .

قال : الحاتى ؟ ! تعال أرك الدنيا . امش . امش ...

قلت : وأين الدنيا ؟

قال : ... ...

وسمى أسماء نسيتها .

وأدخلنى واحداً من هذه المطاعم ، فرأيت مكاناً مزدحماً ، وسقفاً واطياً ، وهواء ثقيلا ، ودخاناً مطبقاً ، وضجة مرهقة ، وموائد ملتصقة ، ثم جاءنا النادل فكلمته بالعربية ، فلوى شدقه استكباراً ولم يفهم ولم يجب ، فكلمه صاحبى بلغة لا أعرفها ، فجاءنا بطعام أدعو الله أن لا يطعمه مؤمناً ، إلا إذا عذبه به فى الدنيا تكفيراً لذنبه ، وتخليصاً له من عذاب الآخرة ، طعاماً خبيثاً ، وشيئاً كالضفادع والسراطين وعقارب البحر ودود البر ، وحشرات الجو ، وشيئاً لزجاً كأنه مرهم الزنك مخلوطاً بالاكتيول فرفعت يدى عنه ولم أمسه ، وأكل صاحبى بشماله ، لأن من العيب كما فهمت أن يأكل باليمين ... واستعمل ملاعق وأشوكا وسكاكين كباراً وصغاراً تسلح عصابة كاملة ... ثم جاء النادل بزجاجة فتحها له ، قرأت عليها اسم خمرة من الخمور ، فالتفت فإذا الذى نحن فيه خمارة ، فغضبت وقمت ، وقلت :

أما إذا بلغ الأمر مبلغه ، فاعلم أنى أمزح معك ، وأتسلى بصحبتك ، وما أحب أن تعتد الزحمة أكثر من هذا ، ولله علىّ أن لا أصحبك بعد اليوم

ورأيته قبل أن أنصرف ، قد دفع ثمن عشائه وزجاجته تسعين قرشاً ، أطعم مثلها أسرتى كلها يوماً كاملا .

وعدت إلى الدار ، فتلقانى أهله بالمودة والبشر ، وأسرع الأولاد وتعلقوا بى ، فأحسست إذ أبصرت دعة المنزل ، ونعمة الأهل ، وسعادة الفضيلة ، ولذة الاستقرار ، بمثل ما تشعر به السمكة تلقى فى الماء ، بعد أن أشرفت على الاختناق .

هذا وما مشينا إلا خطوة واحدة من الطريق ، وما رأيت إلا المطعم ، فكيف لو أكملت الطريق ورأيت الدنيا ؟ !

لا . لا أريد هذه (الدنيا) ، خلّيتها لكم ، فاسرحوا فيها وحدكم وامرحوا ، لا أريدها ، حسبى دنياى ، فهى خير لى وأجدى علىّ ، ولو لم يكن فيها إلا راحة الأعصاب ، وهدوء البال ، وصحة الجسم ، لكان ذلك مرغباً لى فيها ، صارفاً لى عما سواها ، فكيف ومع ذلك كله تقدير الناس ، ورضا الله ؟

أما الأدب فإن كان لا يعجب الناس منه إلا ما يجىء بسهر الليالى ، وذرع الطرقات ، وسكنى المراقص ، وإغراء الغيد بالفواحش ، وسلوك طريق جهنم ، فإن أهون شىء علىّ أن أهجره وأن أطلق الكتابة ثلاثاً ، ثم لا أعود إليها ، ولا أقبل عليها ، وأن أنام بعد مستريحاً خلىّ القلب فارغ الذهن ، إذ لم أخسر بتركها شيئاً ولا خسر القراء !

على الطنطاوى